وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة قالية، فإذا تأخر عن موعد الإياب فأول ما يخطر على بال الأم أن ابنها قد أصابه مكروه، وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد، ولا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين في الرشد والحصافة والقدرة على دفع الأخطار، وإنما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشية، فتتوقع الأم المكروه؛ لأنها تخشى المكروه ولا تبالي سواه، وتتوقع الزوجة العربدة؛ لأنها تخشى العربدة ولا تبالي سواها، ولا يسوءها أن يُصَاب زوجها البغيض كما يسوءها أن يصيبها في غيرتها وكرامتها الزوجية.

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة شيئًا يهمه ويشغل باله، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها، ولم يكبح خواطره عن التمادي في الظلم؛ لأنه علم أن ضمان العدل موجود لا يغفل! وضمان العدل أن سارة عزيزة عليه، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيًا عليها ومطاوعةً لوهمٍ عارضٍ أو شبهةٍ طفيفةٍ، وما هو بقادرٍ على التفريط إلا وقد أصبح وأمسى وليس له عن التفريط محيد.

خذوا أسرارهم من صغارهم … وسرُّ «سارة» إنما طرق مسامع همام — أول ما طرقها — من لسان طفلها الصغير.

كانا يتنزهان يومًا في أرباض القاهرة ومعها طفلها الصغير، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له من مرح الطفولة ومرح المكان … ثم اتجه — طفرة أيضًا — نحو أمه وهو لا يدري ماذا يصنع، فاتخذ منها موقف العاشق المدله وجعل يفوه بألفاظٍ من عبارت المناجاة والغزل والتحبب والتدليل لا تُسمَع إلا بين عاشقين في خلوة غرام، وانطلق يرصها رصًّا كأنما يتلقاها من ملقنٍ أو يتلوها من كتابٍ، فصحا همام من حلمه الذي كان سادرًا فيه على مهلٍ وتكاسلٍ كأنه لَمْ يتبين بعدُ معنى ما يسمع، وأسرعت هي فانتهرت الطفل انتهارًا شديدًا وعنَّفت عليه وهي تبالغ في نهيه أن يسترسل في تمثيل دوره، وأرادت أن توقع في روع همام بغير اكتراثٍ ظاهرٍ أنها إنما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذي يسرده لا لأنها تكتم سرًّا يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره، فقالت: تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة … ما أدري والله ماذا صنع بهذا الطفل في سنه الصغيرة؛ فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن أنداده وأترابه، ولا هو يسلم من معاشرة الأنداد والأتراب.

قال همام: ولكنكِ تعرفين أنداده وأترابه، فمَن منهم تحسبينه خليقًا أن يعيد على مسمعه تلك العبارات؟